الفصل الخامس

قتال من منعوا الزكاة

بينما كان أسامة فى طريقه إلى تخوم الروم ، كان النبأ بوفاة النبى يدفع العرب إلى الثورة بسلطان المدينة. زادت ثورة اليمن ضراماً على الرغم من قتل العنسىّ ، وبدأ مسيلمة فى بنى حَنِيفَة وطُلَيْحةُ فى بنى أسد يدعوان الناس إلى التصديق بنبوتهما ويَلْقَيان من النجاح ما جعل عُيَيْنَةَ بن حِصْن يقول عن طُلَيْحَة : « نبىٌّ من الحليفين — يعنى أسداً وغطفان — أحبّ إلينا من نبىٌّ من قريش . وقد مات محمد وطُليحة حىّ » .

بوادر أنباء الردة

جاءت الرسل بهذه الأنباء وبما هو شر منها لأبى بكر أول ما استُخْلِف. فلما بسطوا أمامه الأمر قال لهم : « لاتبرحوا حتى تجىء رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم وأمرّ من انتقاض الأمور » . ولم يلبثوا أن قَدِمتْ كتب أمراء النبى فى الأنحاء المختلفة من شبه الجزيرة بانتقاض عام أو بانتقاض خاص . ولم تُخْفِ هذه الكتب ما كان من اعتداء المنتقضين على مَنْ بقى على إسلامه بين أظهرهم . وكذلك تضرمت الأرض حول أبى بكر ناراً ؛ فكان لا بد من معالجة هذه الحال التى لم ير المسلمون مثلها منذ فُتِحتْ مكة وأسلمت ثَقِيفٌ .

وكان هذا الاضطراب الذى أصاب العرب قد انتهى بقوم إلى أن يرتدوا عن الإسلام، فى حين بقى آخرون على إسلامهم ثم أبوا أداء الزكاة لأبى بكر . وسواء أكان إباؤهم أداءها راجعاً إلى حرص الناس على المال وتحايلهم على التحلل من بذله كتحايلهم على اقتنائه وإمساكه ، وذهابهم فى هذا وفى ذاك إلى حد التضحية بالحياة فى سبيله ، أم كان راجعاً إلى عدم إياها إتاوة لم يبق بعد وفاة رسول الله ما يسوّغ دفعها لمن اختاره أهل المدينة أميراً عليهم ، فإنهم أضربوا عن أدائها وأعلنوا أنهم لن ينزلوا على حكم أبى بكر فى أمرها .

القبائل التى أبت أداء الزكاة

كان ذلك شأن القريبين من المدينة من قبائل عبس وذُبيان بنوع خاص .

فماذا عسى أن يصنع المسلمون معهم ؟ ليس من اليسير مقاتلتهم بعد أن أنفذ أبو بكر بعث أسامة فلم يبق بالمدينة جيش يدفع عنها . أيرضون منهم أن يمنعوا الزكاة ، وبذلك يستميلونهم إليهم لعلهم يجدون منهم عوناً على الذين نكثوا أيمانهم وارتدوا عن إسلامهم ؟ أم يحاربونهم فيزيدون بذلك عدد عدوهم ، وقد لا يكون لهم فى غيبة الجيش بحربهم قِبَلٌ ؟ .

عمر بن الخطاب وطائفة معه يشيرون بعدم قتالهم

جمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة . وكان رأى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم . ولعل أصحاب هذا الرأى كانوا كثرة الحاضرين فى حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . وأغلب الظن أن المجادلة بين القوم فى هذا الأمر البالغ الخطر طالت واحتدمت أيما احتدام . فقد اضطُرّ أبو بكر أن يتدخل بنفسه فيها يؤيد القلة ؛ ولقد اشتد فى تأييد رأيه فى ذلك المقام ، يدل على ذلك قوله : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » . ولم يَثْنِ هذا المقال عمر عن أن يرى ما فى القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغبته ، فقال فى شىء من الحدة : « كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

لم يتريث أبو بكر ولم يتردد فى إجابة عمر فقال : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : « إلا بحقها » . ويتم الرواة هذا الحديث بأن عمر قال من بعد : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

يذكرنا هذا الحديث بما دار بين رسول الله ووفد ثقيف حين أقبلوا من الطائف يعلنون استعدادهم للإسلام ويطلبون إليه أن يعفيهم من الصلاة ؛ فقد أبى محمد يومئذ أن يجيبهم إلى ما طلبوا من ذلك وقال : « إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » . ولعل أبا بكر قصد إلى مثل ذلك حين قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة » .

جموع من منعوا الزكاة ووفدهم إلى المدينة

بعثت عَبْس وذُبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة ومن غَطَفانَ وفَزارةَ جموعًا منهم أقامت على مقربة من المدينة . ثم إن هذه الجموع انشطرت فرقتين : أقامت إحداهما بالأبْرَق من الرَّبَذَة ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّة أقرب مَحلَّة من المدينة على طريق نجد . وأرسل رؤساء هذه الجموع وفوداً منهم إلى المدينة نزلوا على وجوه الناس وتحملوا بهم على أبى بكر على أن يقيموا الصلاة وألا يؤتوا الزكاة ، فكان جواب أبى بكر ما رأيت : « والله لو منعونى عِقالا لجاهدتهم عليه » .

أوامر أبى بكر لأهل المدينة

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم بعد ما اطَّلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ليس بها من يدفع عنها . وأدرك أبو بكر منهم ذلك ، فجمع الناس وقال لهم : « إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تُؤْتَوْن أو نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ونبذنا عهدهم . فاستعدوا وأعدوا » ثم إنه دعا إليه عليًّا والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وجعلهم على مداخل المدينة ، وأمر سائر الناس أن يكونوا بالمسجد فى عُدَّة القتال .

أول معركة فى عهد أبى بكر

ولم يخطئ أبا بكر حَدْسُهُ ؛ فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثًا ، حتى زحف عليهم مانعو الزكاة يريدون أن يضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام . وأحسَّ العَسَس المقيمون على مداخل المدينة مأتى القوم ، فنبَّهوا عليًّا والزبير وطلحة وابن مسعود ومن معهم من الرجال . وأرسل هؤلاء إلى أبى بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزَموا أماكنكم ، وخرج فى أهل المسجد على الإبل حتى بلغهم ، ثم خرجوا جميعًا يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم . ولم يكن يدور بخواطر أهل هذه القبائل أن سيقاومهم أحد بعد الذى عرفوا من أمر المدينة وأهلها . فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه أخذُوا فولَّوا الأدبار ، فاتَّبعهم المسلمون حتى ذى حسًا ؛ وكانت القبائل قد تركت فى هذه المحلَّة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم . وشعر هذا المدد بمجىء القوم منهزمين وباتباع المسلمين إياهم ، فوقف دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين فى غسق الليل قتال لم يتكشف لأحد

منهم أثره . وكان الذين أقاموا بذى حُسًا من أهل القبائل قد جاءوا بأنحاء[1] نفخوها وربطوها بالحبال وضربوها بأرجلهم فى وجوه الإبل التى امتطاها رجال المدينة . ولم تكن هذه الإبل إبل حرب ألفِتْ مكايد القتال ؛ ولذلك نفرت براكبيها مرتدة حتى دخلت بهم المدينة .

تراجع المسلمين إلى المدينة

فرحت عبس وذبيان ومن ناصرهم بفرار المسلمين وظنوا بهم الوهن ، وبعثوا إلى من بذى القصّة ينبئونهم بما حدث. وأقبل أهل ذى القصة عليهم وتبادلوا وإياهم الرأى ألا يذروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا . أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ويعبئهم . فلما كان الثلث الأخير من الليل خرج يمشى على رأسهم ، وقد جعل لهم ميمنة وميسرة وساقة . وأغذّوا جميعًا السير ، فما طلع الفجر حتى كانوا مع العدو فى صعيد واحد دون أن يسمع العدو لهم همسًا ولا حسًّا . وكيف يسمع وقد اطمأن إلى انتصاره وبات ناعم الجفن بنوم هانئ . ووضع المسلمون السيوف فى القوم ، فهبّوا فزعين يقاتلون. ولكن هيهات! لقد أمعن رجال أبى بكر فيهم قتلا وهم فى عماية الصبح يضطرب حابلهم بنابلهم . وذرّ قرن الشمس وهم يولون الأدبار منهزمين لا يلوون على شىء . واتّبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصّة وهم يفرون أمامه فرار النعام . عند ذلك تركهم ونزل بعسكره فى منازلهم من هذه المحلّة ، ثم جعل بها النعمان بن مُقرّن صاحب ميمنته وجعل معه عددًا يدفع به الذين أرادوا على الصدّيق نصرًا فخُذِلوا ، وعِزًّا فذلّوا .

انتصارهم الحاسم صبح اليوم نفسه

هنا يقف الإنسان خاشعًا ملكه الإعجاب بأبى بكر وبإيمانه وثباته وحزمه . فذلك موقف يذكرنا بمواقف الرسول عليه السلام . وإن لهذه الغزوة الأولى من غزوات أبى بكر لجلالا ما أشبهه بجلال غزوة بدر . ووقف المسلمون يوم بدر ومحمد على رأسهم وعددهم لا يزيد على ثلاثمائة يقاتلون المشركين من أهل مكة وعددهم يزيد على ألف . وهنا وقف أهل المدينة ، ومنهم المقاتل ومنهم غير المقاتل ، وأبو بكر على رأسهم ، وهم قلة أمام هذه الجموع الغفيرة من عبس وذبيان وغَطَفان وغيرهم من القبائل . ويومئذ تحصن محمد بإيمانه وإيمان

(١) الأنحاء : جمع نحى : وهى أوعية من جلود .

أصحابه وبنصر الله إياهم على المشركين . وهنا تحصن أبو بكر بإيمانه وإيمان أصحابه فانتصر كما انتصر الرسول ، ثم كان لنصره الأثر البالغ فى حياة المسلمين .

على أن ما يملك الإنسان من الإعجاب بأبى بكر فى هذا الموقف لا يشوبه من العجب شيء . فقد آلى الصديق على نفسه منذ اللحظة الأولى ألا يدع شيئًا كان يصنعه رسول الله إلا صنعه . أمَّا وذلك عزمه الذى لا يحيد عنه ، فلا عجب أن يأبى المساومة فى أمر يتصل بما فرض الله فى كتابه ، وأن يذكر كلما طلب إليه أحد أن ينزل عن شيء لم يكن رسول الله ليرضى أن ينزل عنه ، هذه الكلمة الخالدة على الزمن من كلمات رسول الله : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» . هذا ما صنع أبو بكر حين تحدث إليه أصحابه فى العدول عن بعث أسامة . وهذا كان موقفه حين تحدثوا إليه فيما يطلب العرب من منع الزكاة . وذلك هو الإيمان الصادق الذى لا يغلبه فى الحياة غالب ؛ لأنه يستهين بالموت ويسمو لذلك على كل ما فى الحياة .

وهذا الإيمان الصادق الذى لا يغلبه الموت ولا يغلبه زخرف هذه الحياة الدنيا هو الذى حفظ الإسلام فى صفائه وكماله فى ذلك الوقت الدقيق الذى كان يومئذ يتخطاه .

وإنك لفى حل أن تسأل نفسك : ترى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه فى شأن الذين طلبوا منع الزكاة ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك ؟ ولا إخالنى فى حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه . كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة عهد بالجاهلية وبالوثنية . فلو أن أبا بكر رضى النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات ، ولوجد طليحة ومسيلمة وغيرهما من المتنبئين الوسيلة للتشكيك فيما جاء محمد به من عند ربه ، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقًا لهم ومطيعًا ؛ بل مؤمنًا بهم يموت فى سبيلهم وينصرهم على دين الحق .

أثر هذا النصر فى المسلمين من مختلف القبائل

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبى بكر ثم لانتصاره بذى القَصّة من أثر حين تعلم أن المشركين من بنى ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين فقتلوهم كل قتلة . هذه الظاهرة التى دفع إليها الغضب والشعور بالذلة والانتقام الوضيع قد زادت انتصار المسلمين جلالا وزادت المسلمين ثباتاً على دينهم فى كل قبيلة ، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله . لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه ، فى حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم فأيقنوا أن الغلب لدين الحق والإيمان به ، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت القبائل إليه لن يمحو عنها عار هزيمتها ، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالياً .

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم .

أهل القبائل يؤدون الزكاة لأبى بكر

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله على أثر انتصاره بذى القَصّة . وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صَفْوان والزِّبْرِقان من رؤساء بنى تميم ، وعَدِىّ بن حاتم الطائى عن قومه من طيئ . واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم فى بِشْر أىّ بشر . وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم : هذا نذير ، فيقول أبو بكر : « بل هو بشير ، وهو حامٍ ليس بوانٍ » . ويجيب الناس أبا بكر يقولون : « طالما بشَّرت بالخير » ! ! .

لم يكن أبو بكر غالياً إذ دعا هؤلاء حُمَاة ومبشّرين بالخير . فقد كان المسلمون بالمدينة وفيما جاورها فى حاجة يومئذ إلى سند يشد أزرهم بعد الذى رأوا من خطر يوشك أن يهدّ كيانهم . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منّ علينا بأبى بكر . أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مَخَاض وابنة لَبُون ، وأن نعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم . فوالله ما رضى منهم إلا بالخُطَّة المخزية أو الحرب المجلية . فأما الخطّة المخزية فأن يُقِرُّوا بأن

من قُتل منهم فى النار ومَنْ قُتل منا فى الجنة ، وأن يَدُوا قتلانا ، وأن نغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا . وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم » .

عود أسامة من أرض الروم

وإن الناس لفى طمأنينتهم بالمدينة إلى نصر الله أبا بكر ، وقد جاء إليهم المسلمون من مختلف القبائل بالزكاة ، إذ أقبل أسامة عائداً من أرض الروم غانمًا مظفراً يسوق أمامه غنائمه ويلحق به جيشه ، ويستقبلهم أبو بكر وكبار الصحابة بالجُرُف ، ويحفّ الناس بهم فى أثر الصدّيق وأصحابه ينشدون من حولهم أغانى العزة والنصر . وذهب أسامة من فوره إلى المسجد ، فركز اللواء الذى عقده له رسول الله ، وصلّى شكراً لله على ما نصره وأعزّ بجيش المسلمين كلمةَ الحق ودين الهدى .

ما هذا كله ؟ ! أليست هى المعجزة أراد الله أن يتم بها النصر لدينه ! وهل تتضافر الأقدار بمحض المصادفة هذا التضافر الذى دوّى فى أنحاء شبه الجزيرة ، فشد من عزائم المسلمين فى كل قبيلة ، ورفع من رءوسهم فى وجه عدوهم فما يدرى مرتدّ ما يقول لهم ! . .

أبو بكر يخرج كرة أخرى لقتال من منعوا الزكاة

ورأى أبو بكر فى حصافته ودقة تقديره الأمور ألا يُريح أعداءه وأن يضاعف ذلّتهم ، فقال لأسامة وجنده : استريحوا وأريحوا ظهوركم . ثم استخلف أسامة على المدينة ، ونادى فى رجاله الأوّلين بالخروج معه إلى ذى القصة . وناشده المسلمون قائلين : « ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرّض نفسك ، فإنك إن تُصَبْ لم يكن للناس نظام ، ومُقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا ، فإن أصيب أمَّرت آخر » . لكن أبا بكر كان إذا اعتزم أمراً لم يرجع عنه ؛ لذلك قال لهم : « لا ! والله لا أفعل ، ولأواسينّكم بنفسى » . وخرج ومن حوله الميمنة والميسرة والساقة ، كما خرج من قبل ، حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فيما وراء ذى القصة . هناك قاتل عبسًا وبنى ذبيان وبنى بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وكانت الأبرق فى ملك بنى ذبيان . فلما جَلَوْا عنها أعلن أبو بكر أنها أصبحت فى ملكه وملك أصحابه . وقال : « حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد وقد غنّمناها الله » .

وبقيت هذه الأماكن من بعدُ يحتلها المسلمون ، فلم يرض أبو بكر أن يردها إلى بنى ثَعْلبةَ حين جاءوا إليه بعد أن استقرت الأمور يريدون العود فيها إلى منازلهم .

تمت هزيمة الثائرين الذين أرادوا أن يمنعوا الزكاة . وتمت هذه المرةَ والمدينة فى منَعَةَ أى منعة بجيش أسامة ، وفى رخاء بما جاء به من الغنائم ، وبما حُمِل إليها من زكاة المسلمين الذين آتوا الزكاة منذ انتصر خليفة رسول الله .

أفما آن لبنى ذبيان وعبس وغطفان وبنى بكر وغيرهم من القبائل القريبة من المدينة أن ترجع عن انتقاضها ، وأن تذعن لأبى بكر وتعلن الإسلام لأمر الله ولخليفة رسول الله ؟ لقد تحطمت الثورة التى قام بها العنسىّ فى اليمن . ولقد انتصر المسلمون على تخوم الروم . ولقد بدا أبو بكر فى ثوب من قوة الإيمان لا غالب له. وهذه القبائل كانت إلى أن اختار الله إليه رسوله مُسلمةً صادقة فى دينها ، فخير لها أن تعود إلى حظيرة الإسلام وأن تمد يدها إلى الصدّيق بالطاعة . وأن تكون معه على عدوّ الله وعدوه . ذلك ما يوجبه العقل وما يقضى به منطق الحوادث . فأولئك المسلمون من المهاجرين والأنصار هم الذين تغلّبوا على أهل شبه الجزيرة جميعًا بقوة إيمانهم ؛ وهم اليوم فى قوة لم تكن لهم أيام بَدْر والغزوات الأولى فى عهد الرسول . فمكة معهم ، والطائف معهم ، وسلطانهم معترف به فى مختلف البقاع . ثم إن من أهل هذه القبائل الثائرة بأبى بكر مسلمين إن استطاعت القبائل أن تفتن بعضهم فلا سلطان لها على الأعزة منهم ، مخافة الثارات والفتن التى تنجم عن تعصب البطون والأفخاذ لذوى المكانة فيها . أفأذعنت لحكم العقل وسمعت لحجة المنطق ؟ .

انحياز المنهزمين إلى طليحة فى بنى أسد

كلا ! بل أخذتها العزة بالإثم ، وغرها بالله الغرور ، وصدق عليها المثل : العناد يورث الكفر . لذلك جلت عن مواطنها وانحازت إلى طُلَيْحة بن خُوَيْلد المتنبئ فى بنى أسد وكفرت بنعمة الله عليها بالإسلام. ولم يستطع المؤمنون الذين أقاموا على دين الله بينها أن يقاوموا عنادها وكفرها ، فنزح منهم من نزح معها كارهاً برماً لا يملك من أمر نفسه شيئًا . وقوّى انحيازُها طُليحة ومُسيلمة

وقوى روح التمرد فى اليمن . لذلك بقى أبو بكر فى موقفه الأول من العزم على مقاتلتهم حتى يتم أمر ربك. ولو أن هذه القبائل أذعنت لحكم العقل وأصاخت لإملاء المنطق لضعضع أمرها من عزم طليحة وأشباهه، ولأسرعت شبه الجزيرة إلى حمى الإسلام والسلام .

موقف القبائل من أبى بكر وموقفه منها

ولست تجد تعليلا لهذا العناد ولهذا الانقلاب عن الإسلام إلا ما قدّمنا من تعصب القبائل وحرصها البدوى على سلطانها، ومن المغالاة فى ذلك إلى حد لا يكبح من جماحه غير البأس . فإذا كانت قد رُدَّتْ على أعقابها حين حاولت مهاجمة المدينة، أو كانت قد أجليت عن بعض منازلها من بعد ، فطبيعتها البدوية تدعوها إلى الثأر لنفسها. ولتثأر لنفسها انضمت إلى بنى أسد وإلى طُليحة ، لعلها تجد فى عونها ما يرفع عنها عار الذلة، وما يرد إليها شيئًا من الكرامة .

فأما أبو بكر فكان قد سما فوق الاعتبارات القَبَلية وما يتصل بها، وتوجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخُطَّة التى رسمها رسول الله . تلك سياسته التى أعلنها يوم بويع ، والتى سار عليها إلى أن لقى ربه .